النوازل الفقهية وأهميتها في الدراسات التاريخية (جوانب من التاريخ الاجتماعي بالمغرب الإسلامي من خلال نوازل الونشريسي نموذجا)

The importance of jurisprudential emerging issues in historical studies (Aspects of sosial historyin the islamic meghreb troughthe book Al-Moa'ir by Al-Lonchrissi as a model)

د. شعوة علي

جامعة الشهيد حمة لخضر الوادي

Chaoua-ali@univ-eloued.dz

تاريخ الاستلام: 2023/02/03 تاريخ القبول 2023/04/29 تاريخ النشر 2023/05/14

ملخص:

يتناول موضوع الدراسة أهمية كتب النوازل في الدراسات التاريخية، حيث تطرقنا للحياة الاجتماعية من خلال كتاب المعيار للونشريسي.

تطرقنا في البداية التعريف بالعلامة الونشريسي، نسبه ومولده والنشأة والتعلم، ثم مكانته العلمية ، ثم أهم شيوخه وتلامذته ثم وفاته، ثم تناولنا التعريف بكتاب المعيار المعرب، ومكانته العلمية، وكذلك مصادره، والغرض من تأليفه، وتاريخ تأليفه، ثم تطرقنا إلى أهمية كتاب المعيار في دراسة التاريخ الاجتماعي، ثم تناولنا الحياة الاجتماعية، حيث ركزنا على أهم الفئات الاجتماعية مثل فئة الحكام والقضاة والفقهاء، ثم طبقة الأشراف والعبيد، وأخيرا أهل الذمة، كما تناولنا لأهم العادات والتقاليد المنتشرة في بلاد المغرب الإسلامي، ثم تطرقنا للزواج ومراحله، من خطبة وجهاز ووليمة، كما تناولنا قضية التكافل الاجتماعي بين أفراد المجتمع، و قضية انعدام الأمن، وأخيرا الخاتمة.

الكلمات المفتاحية: الونشريسي، المعيار، الحياة الاجتماعية، العادات، الزواج.

Summary:

The subject of the study deals with the importance of the books of calamities in historical studies, as we touched on social life through the .book Al-Mo'a'ir by Al-Wanchrisi
In the beginning, we discussed the definition of Allama Al-Wansharisi, his lineage, birth, upbringing and learning, then his scientific standing, then his most important sheikhs and students, and then his death. The study of social history, then we dealt with social life, where we focused on the most important social groups such as the category of rulers, judges, and jurists, then the class of nobles and slaves, and finally the people of dhimma, as we dealt with the most important customs and traditions spread in the countries of the Islamic Maghreb, then we touched on marriage and its stages, from sermon, device and feast We also dealt with the issue of social solidarity among members of society, .the issue of insecurity, and finally the conclusion
Keywords: Wenchrisi, criterion, social life, habits, marriage.

مقدّمة:

تعتبر كتب النوازل من المصادر المساعدة في الدراسات التاريخية، ومن أهم الكتب النوازلية نذكر كتاب المعيار للعلامة أحمد الونشريسي، فهذا الأخير يعتبر أكبر موسوعة فقهية نوازلية في بلاد الغرب الإسلامي، وقد احتوى الكتاب المعيار على إشارات ومعلومات قيمة عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية في بلاد المغرب الإسلامي، خاصة خلال القرنين الثامن والتاسع هجري/14و15م. من خلال ما سبق ما هي أهم مظاهر الحياة الاجتماعية من خلال كتاب المعيار؟

وقد اعتمدنا في دراستنا على المنهج الوصفي السردي، إضافة إلى المنهج التحليلي في تحليل الأفكار.

والفرضيات التي يمكن أن نطرحها هي مدى أهمية كتب النوازل الفقهية في الدراسات التاريخية، والمعلومات الدقيقة التي تتضمنها عن الحياة الاجتماعية مثل مراحل الزواج والطبقات الاجتماعية وغيرها، والتي لا يمكن أن نجدها في المصادر والمراجع التاريخية والهدف من هذه الدراسة هو إبراز أهمية النوازل الفقهية في الدراسات التاريخية.

المبحث الأول: التعريف بالإمام الونشريسي:

تناولنا في هذا المبحث التعريف بشحصية العلامة الونشريسي من حيث الولادة والنشأة وتكوينه العلمي وأهم شيوخه وتلاميذه ثم وفاته.

المطلب الأول: نشأة الإمام الونشريسي

الفرع الأول: نسبه وصفته:

هو العلامة أحمد بن يحي بن عبد الواحد الونشريسي، وصفه أحمد بن منجور في فهرسته بقوله: الفقيه الكبير الحافظ المحصل النوازلي أبي العباس أحمد بن يحي الونشريسي(1)، كما وصفه التنبكتي بالعالم العلامة حامل لواء المذهب على رأس المائة التاسعة(2)

وصفه أحمد شفشاوي: هو أحمد بن يحي الونشريسي الشيخ الإمام العالم العلامة المصنف الأبرع، الفقيه الأكمل الأرفع البحر الزاخر والكوكب الباهر حجة المغاربة على أهل الأقاليم وفخرهم الذي لا يجحده جاهل ولا عالم، أبو العباس أحمد بن يحي الونشريسي، كان رحمه الله من كبار العلماء الراسخين والأئمة المحققين. (3)

أما الشريف بن عبد الله الكتاني فيصفه بالبحر الزاخر والكوكب الزاهر، حجة المغاربة على أهل الأقاليم، وفخرهم الذي لا يجحده جاهل ولا عالم، الفقيه الكبير الحافظ المحصل الشهير العلامة، المشارك القدوة الحجة، المنصف الأسوة حامل لواء المذهب على رأس المائة التاسعة، وإمام المغرب والمشرق أبو العباس سيدي أحمد بن يحي بن محمد بن عبد الواحد بن علي الونشريسي الأصل والمولد، التلمساني المنشأ والقراءة، الفاسي الاستيطان والقرار والقبر، كان أحد كبار العلماء الراسخين والأئمة المحققين متبحرا في مذهب مالك، غارفا أصوله وفروعه، كثير الاطلاع والحفظ والإتقان، يقضي ذلك كل من يطالع أجوبته وتأليفه.(4)

الفرع الثاني: مولده ونشأته:

هو الشيخ أحمد بن يحي بن محمد بن عبد الواحد بن علي أبو العباس التلمساني الونشريسي نسبة إلى جبل الونشريس(5). سيدي أحمد بن يحي الونشريسي المولد التلمساني المنشأ والقراءة، الفاسي القبر والدار الآخرة (6)، ولد حوالي 834هـ/1428م(7).

الفرع الثالث: وفاته:

ذكر التنبكتي أن الونشريسي توفي عام أربعة عشر وتسعمائة هجري، وفي هذه السنة استولى الفرنجة على مدينة وهران ، فك الله أسرها وعمره نحو ثمانين سنة(9)، وتوفي بالضبط يوم الثلاثاء 20 صفر سنة 914هـ/14 ابريل 1505م(10)

وقد رثاه الوادئاشي بقوله:

لقد أظلمت فاس بل الغرب كله بموت الفقيه الونشريسي أحمد

رئيس ذوي الفتوة بغير منازع وعارف أحكام النوازل الأوحد

له دربة فيها ورأي مسدد بإرشاده الأعلام في ذلك تهتدي(11)

المطلب الثاني: تكوينه العلمي

الفرع الأول: شيوخه:

أخذ الونشريسي العلوم عن أبيه، كما أخذ عن شيوخه التلمسانيين كالإمام الكبير أبي عبد الله بن العباس، والفقيه المحقق أبي سالم العقباني، والفقيه الحاج الرحالة أبي عبد الله محمد العقباني، والإمام الخطيب الصالح الكفيف ابن مرزوق، والغرابلي والمري،(12) كما أخذ عن الشيخ الإمام المفتي العالم أبو الفضل سيدي قاسم بن سعيد العقباني،(13)، كما أخذ عن الفقيه القاضي والمفسر والخطيب أبو عبد الله محمد بن أبي الفرج الحباك(871هـ/1466م)(14)

كما أخذ عن شيخ الفتوى بفاس، شيخه بالمكاتبة أبو عبد الله محمد بن قاسم القوري (ت872هـ/1467م)(15)، والشيخ المحصل الحافظ أبو عبد الله محمد بن احمد بن

عيسى الجلاب(ت875هـ/1470م)(16)، وقاضي مازونة الفقيه الفاضل أبو زكريا يحي ابن القاضي أبي عمران موسى ابن عيسى المغيلي(ت883هـ/1478م) (17)، والشيخ الفقيه الأصولي الصالح الخطيب الأكمل أبو عبد الله محمد بن محمد بن حرزوزة من آل عبد القيس(ت883هـ/1478م) (18)، والشيخ أبو العباس أحمد بن محمد بن زكري المانوي التلمساني(ت899هـ)(19).

الفرع الثاني: تلامذته:

أخذ عن الونشريسي الكثير من العلماء وطلبة العلم، نذكر منهم ولده عبد الواحد (20)، والفقيه أبي عباد بن مليح اللمطي، وممن أخذوا عنه الشيخ الأستاذ المتفنن أبي زكريا السوسي، والفقيه المحدث الصالح محمد بن عبد الجبار الودغيري، والفقيه النجيب عبد السميح المصمودي، والعلامة الفقيه سليل العلماء القاضي محمد بن غرديس التغلبي قاضي فاس الجديد(21) منهم ولده عبد الواحد، والأستاذ أبو زكريا السوسي و والمصمودي (22)، و الشيخ عبد الوارث اليصلوتي(23).

وقد ساعده على تخريج هذه النخبة من العلماء الكبار اتساع علمه وكثرة اطلاعه، وطول عمره، فقد عاش ثمانين سنة، إذ توفي بمدينة فاس يوم الثلاثاء 914هـ(24)

المبحث الثاني: كتاب المعيار وأهميته في الدراسات التاريخية

تناولنا في هذا المبحث التعريف بكتاب المعيار، ومكانته وأهميته، وتاريخ تأليفه، و المصادر التي اعتمد عليها الونشريسي في كتابة المعيار، و أهمية المعيار في الدراسات التاريخية.

المطلب الأول: التعريف بكتاب المعيار

الفرع الأول: التعريف بالكتاب

أما الاسم الكامل للكتاب هو المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، للعلامة الكبير أحمد بن عبد الواحد الونشريسي(ت914هـ/1508م)(25)، وقد قام بتحقيق الكتاب المؤرخ الكبير محمد

حجي مع فريق من الأساتذة، وقد صنفه المؤرخ في ثلاثة عشر مجلد، فالجزء الأول يتضمن فتاوى الطهارة والحج، والجزء الثاني الصيد والتعزيرات، والجزء الثالث النكاح، والجزء الرابع الخلع، والجزء الخامس المعاوضات والبيوع، الجزء السادس تابع للمعاوضات والبيوع والصلح، الجزء السابع الأحباس، الجزء الثامن المياه والبنيان، الجزء التاسع بقية نوازل الضرر والاستحقاق، والجزء العاشر الأقضية والمديان، الجزء الحادي عشر الجامع، والثاني عشر تابع للجامع، أما الجزء13 الأخير فهو عبارة عن فهارس للكتاب، يقول الونشريسي: ورتبته على أبواب فقهية ليسهل الأمر فيه على الناظر، وصرحت بأسماء المفتين إلا في اليسير النادر(26).

الفرع الثاني: مكانة كتاب المعيار العلمية:

للمعيار مكانة علمية كبيرة من حيث إنه يعتبر مرجع مهما لكتب الفقه عامة ولكتب النوازل خاصة. فكتب الفقه كثيرا ما تذكر نقول موجودة في المعيار.(27)

أما بالنسبة لكتب النوازل فإنه يعتبر مصدرا مهما من حيث النصوص التي يوردها، بحيث يوجد فيه من الفتاوى التي لا توجد في مخطوطات بعض كتب النوازل، كما أنه يعد مصدرا معتمدا في تحقيق نصوص الفتاوى في تلك الكتب أيضا(28)

بالإضافة إلى أن المعيار يشتمل على نصوص من كتب فقهية أصيلة ضاعت فيما بعد من كتب التراث في القرون الأخيرة(29)

المطلب الثاني: تاريخ تأليفه والغرض من تأليفه ومصادره

الفرع الأول: مصادره: .

اعتمد الونشريسي في تأليف كتابه المعيار على خزانة الشيخ محمد بن غرديس التغلبي، وذلك لاحتوائها على مختلف تصانيف الفنون، و استعان بها في تصنيف كتابه المعيار، سيما فتاوي فاس والأندلس، أما فتاوي إفريقيا وتلمسان فاعتمد في ذلك على نوازل البرزلي والمازوني، وهو في ستة أسفار في المخطوط الأصلي،(30)،كما نقل الونشريسي عن الشيخ إبراهيم بن عبد الرحمن بن الإمام (ت797هـ) في تأليف نوازله(31)، واعتمد كذلك على الشيخ محمد النالي المعروف بالمسفر ، حيث كان ترفع إليه الأسئلة من الأقطار البعيدة فيجيب عنها بأجوبة جليلة، نقل الكثير منها الأمام أبو العباس الونشريسي في المعيار المعرب(32)

كما اعتمد على فتاوى شيوخه كأبي الفضل قاسم العقباني وابن مرزوق وغيرهما، وبالنسبة لكتب الفقه المعتمدة فقد نقل منها الشيء الكثير، وفي مقدمة ذلك المدونة والموازية والعتبية، والبيان والتحصيل لابن رشد والنوادر والزيادات، وشرح التلقين للمازري وغيرها كثير، مما يدل على غزارة علم الونشريسي وسعة اطلاعه.(33)

الفرع الثاني: الغرض من تأليفه:

ذكر الونشرسي في مقدمة كتابه سبب تأليف كتاب المعيار حيث قال: ...جمعت فيه من أجوبة متأخريهم العصريين ومتقدميهم ما يعسر الوقوف على أكثره في أماكنه واستخراجه من مكامنه، لتبدده وتفريقه، وانبهام محله وطريقه، رغبة في عموم النفع به ومضاعفة الأجر ...(34)

نستنتج من كلام الونشريسي أن سبب تأليفه لهذا الكتاب هو تيسير الوصول إلى المعلومة سواء لمتقدمي العلماء أو المتأخرين، ممن يكون صعب الوصول إليها في أماكنها بسبب تفرقها وغموض معرفة تواجدها، من أجل نفع الطلبة والعلماء والقراء، و طلب الأجر والثواب من الله.

الفرع الثالث: تاريخ تأليفه:

أما بالنسبة لتاريخ تأليف كتاب المعيار فيقول الونشريسي: لقد أتيت من هذه الأجوبة الباهرة والفتاوى الواضحة الظاهرة، على ما شرطت، وعليه ربطت، والله قصدت، والحمد لله على إتمامها، ثم له الحمد عدد خلقه وزنة عرشه، وتركت أجوبة كثيرة من الفقه والأحكام مما تضطر إليه القضاة والحكام، وكان الفراغ من تقييده مع مزاحمة الأشغال وتغيير الأحوال يوم الأحد الثامن والعشرين لشوال عام واحد وتسعمائة (35)

لم يذكر الونشريسي في المعيار تاريخ بدء الكتابة فيه ولكن ذكر وقت الانتهاء منه حيث قال: وكان الفراغ من تقييده مع مزاحمة الأشغال وتغير الأحوال يوم الأحد الثامن والعشرين لشوال عام واحد وتسعمائة، وكأن الونشريسي كان يتعاهد كتابه بالتنقيح والزيادة، وقد صرح هو بنفسه بهذه الإلحاقات في فتاوي أضافها ببعض الأبواب، ونصّ على أن ذلك في عام 911هـ، وقد افترض الدكتور محمد حجي أن تأليفه وتنقيحه وتوسيعه استغرق حوالي ربع قرن من 890هـ إلى 914هـ.(36)

المطلب الثالث: أهمية كتاب المعيار في دراسة التاريخ الاجتماعي:

يعتبر كتاب المعيار من أهم كتب النوازل في بلاد الغرب الإسلامي، كما أنها تحتوي على إشارات ومعلومات تاريخية هامة تفيد المؤرخ في دراساته التاريخية.

ومن هنا تظهر الأهمية الكبيرة لكتب النوازل في مجال الكتابة التاريخية، حيث أنها تعكس أوضاعا تاريخية دقيقة من خلال السؤال والجواب يمكن أن تسد الفراغات التي تعاني منها كتب التاريخ التقليدية، هذه الأخيرة التي اهتمت بالتاريخ السياسي، ولم تعط الجانب الاقتصادي والاجتماعي الأهمية التي يستحقها، كما تتميز كتب النوازل ببراءتها في عرض المادة التاريخية لأنه يفترض فيها أنه لا تصدر من سلطة رسمية ولا تصطبغ بلون سياسي، فابتعاد المفتي في غالب الأحيان عن السلطة الحاكمة يوفر مناخا من الحرية لفكره دون تدخل سافر من السلطة الرسمية، مما يجعل النازلة نصا تاريخيا محايدا يفوق أحيانا قيمة النص التاريخي نفسه(37)

فالنازلة الفقهية تكمن قيمتها في أنها تقدم حصيلة خبرة المفتي أو القاضي النظرية منقولة إلى مواقع العمل في المجتمع تطبيقا وتنفيذا في قضايا الزراعة والصناعة والتجارة والملاحة وبيوت المال وغير ذلك من مناحي الحياة اليومية، فالنازلة الفقهية إذن تعكس صورة المجتمع الإسلامي في خصوصياته في مشاكله وتعقيداته، فهي تتضمن مادة غنية في مجال الدراسات التاريخية والحضارية قلما ترد في المصادر التاريخية، هذا فضلا على أن النازلة تتميز بسمتها الواقعية البعيدة عن أي صبغة إيديولوجية أو سياسية مما يجعل خطابها التاريخي محايدا يفوق في الكثير من الأحيان قيمة النص التاريخي، كما أنها تتميز بالواقعية والتجدد وتنوع التأليف، و أنها ذات طابع محلي، فلا تبقى سابحة في المطلق كما هو الشأن في كتب الفقه العامة، وإنما تتجدد مسائلها في المكان والزمان والموضوع بحسب ما تأتي به الأسئلة التي تنبني عليها وما تطرحه من مشاكل دينية واجتماعية، ومن ثم تكون كتب النوازل غنية بالمعلومات التي تفيد المؤرخ(38)

المبحث الثالث: الحياة الاجتماعية من خلال كتاب المعيار

تناولنا في هذا المبحث الفئات الاجتماعية، والزواج، و العادات والتقاليد، والتكافل الاجتماعي وظاهرة انعدام الأمن.

المطلب الأول: الفئات الاجتماعية:

الفرع الأول: فئة الحكام

تضم هذه الطبقة الفئة العليا في المجتمع من السلاطين والأمراء من بني عبد الوادي، وأبناء عمومتهم، والحجاب والوزراء، وكتاب الدواوين والولاة، وقادة الجيش، والمنصبان الأخيران لا يقلدان في غالب الأحيان إلا لأقرباء السلطان، وكان هؤلاء أكثر شرائح المجتمع التلمساني استفادة من الدولة بحكم وظائفهم في تسيير دواليب الحكم واحتكاكهم اليومي بالسلطات، يتلقون مرتبا منتظما من بيت المال، وكانت هذه الفئة

تعيش عيشة مترفة، تتصدر المجتمع وتتربع على قمته بحكم موقعها في جهاز الدولة، وارتبط البعض منها بعلاقة المصاهرة مع العائلة الحاكمة.(39)

الفرع الثاني: طائفة الفقهاء

وهي طبقة متميزة في المجتمع المغربي، إذ كانوا يحظون بمركز اجتماعي مرموق، وكان معظمهم ينعم بالثراء واحترام الناس، فقد ذكر الونشريسي أن معظم بلاد المصامدة في المغرب لم يكن بها قضاة، ولذلك جرى العرف أن يقوم الفقهاء وأهل العلم من العدول مقامهم في تطبيق الحدود وإقامة الأحكام، وكانت بعض القبائل المغربية تقدم أحد الفقهاء العدول للنظر في أمور الأيتام والغائبين التي طالت غيبتهم(40)

وهي طبقة معروفة بالفقه والفتوة والعلم، ولهم شدة في الدين، ولا يصبرون على انتهاك حرمات الله، حيث يقومون بالدعوة ويناظرون أهل الكتاب من اليهود في أمور الدين، والفقهاء كانوا أثرياء، وفي بعض الأحيان يحترفون التجارة (41)

الفرع الثالث: طبقة الأشراف

ويقصد به الشرفاء الذين ينتسبون إلى البيت النبوي الشريف، وهي طبقة كانت تحظى بقدر وافر من التبجيل والاحترام في المجتمع المغربي، وتذكر إحدى النوازل أن الفقهاء المغاربة أفتوا بوجوب احترام الأشراف والقيام بحق ذرية النبي الطيبة الطاهرة ومن انتسب إلى بيته الشريف، وكان كل من يتعرض لهتكها يستحق العقوبة(42)، وكان الشرف يثبت بالسماع، وهذا النسب يثبت بالرسوم الصحيحة المعتبرة، وهناك من يدعي هذا النسب الشريف مع شهرة مدعيه ، وكان للشرفاء مكانة كبيرة، بحيث يجب احترامهم وتعظيمهم، وعلى الشرفاء أن يراعوا حرمة المسلمين عامة(43).

وهناك قضية الشرف من قبل الأمهات، حيث تطرقت له كتب النوازل، وكثر الحديث فيه، حيث تعرض لها ابن عرفة في مختصره وذكر أنه شاع في أول القرن الثامن الخلاف فيه، فأفتى أبو علي البجائي بثبوته، وتبعه أهل بلده، وأفتى أبو إسحاق التونسي بعدمه

وتبعه ابن عبد السلام، وألف الفريقان في ذلك وتعقب ابن عرفة كل ما كتب في الموضوع (44).

الفرع الرابع: طبقة الرقيق

ونقصد به العبيد، حيث كانوا من الفئات التي قامت بدور هام في المجتمع المغربي، فكانت أسواق النخاسة وتجارة الرقيق رائجة في الغرب الإسلامي بصفة عامة، ويذكر الونشريسي أن بعض الجواري كن يتمتعن بموهبة الغناء، فيشير إلى أن رجلا من أهل المغرب كان يقتني جارية تغني في الأعراس وغير ذلك من المناسبات الأسرية السعيدة(45) وفي نازلة أخرى عن وصية رجل بأشياء منها عتق جارية(46) والعبيد ليس بالضرورة أن يكونوا من المسلمين بل هناك عبيد نصارى في ذمة مسلم(47)

الفرع الخامس: أهل الذمة

ونقصد بأهل الذمة اليهود والنصارى، وكانت لهم معابدهم الخاصة التي يعظمونها ويمارسون ديانتهم ويقرؤون التوراة بكل حرية بعيدا عن الضغط والمضايقة(48)

المبحث الثاني: العادات والتقاليد

الفرع الأول: عادات الجنائز والوفاة

عرف المجتمع المغربي عادات والتقاليد خاصة بالجنائز، منها عادة الجهر بالتهليل أمام الجنازة، فيقوم الناس في جنائزهم عند حملها بالتهليل والتصلية والتبشير والتنذير على صوت واحد، ويضيف بأن من عادات كثير من المواضع في المغرب عندما يتوفى أحد الأشخاص أن يصعد أحدهم إلى منار أو المئذنة الجامع ويقرأ شيئا من القرآن ويذكر بعض الابتهالات كما يفعل المؤذن قبيل آذان الفجر، ثم يدور في المنار معلنا وفاة فلان وجنازته(49).

وعادة تسمى سابع الميت، حيث كان أهل المتوفي في يوم السابع للوفاة يصنعون طعاما للقراء والفقراء والأقارب للترحم على الميت وصلة الأرحام، ويسمى هذا الطعام بعشاء

القبر، كما كانوا يضربون في هذا اليوم الفسطاط على قبر المتوفي، ويستأجرون أحد القراء لتلاوة ما تيسر من القرآن على القبر، وذلك على الرغم من حث الفقهاء على نبذ تلك العادة التي اعتبرت من البدع ومما أحدثه الناس(50).

الفرع الثاني: عادات في الأعياد والمناسبات

وهناك عادات وتقاليد تخص الأعياد والمناسبات الدينية، حيث عند ثبوت رؤية الهلال رمضان في إحدى مناطق البادية أو شوال يبادر القوم بإيقاد النار لإعلام القرى المجاورة برؤيته، وكان أهل الفتوة المغاربة يرون أنه لا يجوز أن يبني الإنسان في رؤية الهلال إلا على عدلين محققي العدالة فأكثر.(51).

وهناك عادة الاحتفال بالمولد النبوي الذي أحدثه العزفي أمير سبتة وتبعه ولده أبو القاسم واستحسنه علماء المغرب(52)، حيث كان المولد يلقى اهتماما كبيرا من قبل ولاة الأمر وسائر طبقات المجتمع المغربي، إذ اعتاد الناس الاحتفال بتلك المناسبة بإيقاد الشمع، والتزين بما حسن من الثياب وركوب الدواب لإظهار الفرح والسرور بمولده عليه الصلاة والسلام، كما كانت تكثر في تلك المناسبة الصدقات على الفقراء والمساكين واليتامى وإعداد أطعمة لهم، والتوسعة على الأبناء في المأكل، وكان الأثرياء من الفقهاء يحرصون أيضا على إقامة الولائم التي يدعى إليها الأصدقاء ولا يحبذون صيام هذا اليوم لأنه في نظرهم لا يستقيم فيه الصيام لأنه يوم عيد، كذلك جرت العادة عند المعلمين على إيقاد الشمع في الكتاتيب، والاجتماع مع صبيانهم للصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، وتلاوة ما تيسر من القرآن، وإنشاد بعض القصائد في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان الصبيان يطالبون أبائهم بشراء الشمع وتقديمه لمؤدبهم في حانوته، واعتاد الرجال والنساء الاجتماع في تلك المناسبة، وهو ما أنكره الفقهاء واعتبروه من المحدثات البدع التي يجب قطعها.(53)

كما اهتم المجتمع المغربي الاحتفال بميلاد أطفالهم، فكانوا يعدون العقيقة، وهي وليمة تتكون من أحد الخراف ونوع من الحلوة اشتهر به المغاربة، ويسمى العصيدة، ويطعم من ذلك الفقراء وأقارب وأسرة المولود، ويحتفلون أيضا بقص أول خصلة من شعر الطفل في اليوم السابع لولادته، و كذلك يحتفلون بختان الطفل، فيقيمون بهذه المناسبة مأدبة يدعى إليها الأهل والأقارب، كما وجد لديهم ما يسمى بالصنيع، وهي مجالس اللهو والطرب التي كان يصحبها غالبا النفخ بالبوق والضرب على العود واحتساء الخمر وشرب المسطار وهو عصير العنب قبل طبخه أو تخمره(54).

وهناك عادات مخالفة للشريعة، مثل ما وجد في بلاد القبلة بالمغرب الأوسط، حيث جرى العرف منع النساء فيها من الميراث منذ القرن الخامس رغم أن الشريعة الإسلامية أعطت حق المرأة في الميراث(55).

الفرع الثالث: عادات متنوعة

وهناك عادة كانت منتشرة بين السكان، ما يعرف خميس الطالب هو مخضة من الزبد يأخذها المعلم من كل بيت من بيوت الحلة في فصل الربيع(56)

كما وجدت بعض العادات السيئة مثل ما ذكره الشاطبي حيث أفتى عام 786هـ باستنكار ما أحدثه الفقراء في الدين من بدع ومن بينها بعض طرق التصوف، حيث يذكرون على صوت واحد ثم ينتقلون إلى الغناء والضرب بالأكف والشطح إلى آخر الليل(57)

المطلب الثالث: الزواج

الفرع الأول: الخطبة

تسبق الزواج الشرعي الخطبة، وهو الرغبة والاستعداد لربط علاقة شرعية ولبناء أسرة، لكن هناك اختلاف بين الناس في اختيار الزوجة، فمنهم من كان يخطبها لجمالها، ومنهم من كان يزوج ابنته لمن يرضاه من ذوي الجاه والمال. وكانت عادة القبائل العربية هي أنهم

ينكحون المرأة لجمالها، ورغم هذا فإن من عادة الناس اختيار المرأة الطيبة المتدينة وينفرون من تزويج بناتهم للفساق والظالمين(58)

الفرع الثاني: إعداد الجهاز

وهو الأشياء التي يجهز بها الأب لابنته قبل الزواج(59) صداق الزوجة في الصدر الأول كان كله معجلا ثم حدثت تفرقة إلى معجل ومؤجل(60)

وكان الجهاز يحتوي على حلي ومتاع وحيوان للذبح في الزفاف(61)، وكان الآباء يضيفون أشياء لتتزين بها ابنته العروس ليلة زفافها، حيث يفعلون ذلك في حياة بناتهم رفعا لمكانتهن وتكبيرا لشأنهن وحرصا على الحظوة عند الزوج وعائلته(62)، وفي بعض الأحيان تقع إشكالات على الجهاز حيث تدخل الزوجة على بعلها ثم بعد دخولها يتوفى أب الزوجة وبيدها حلي أبيها المتوفى، فطلب الورثة برسم يتضمن أن العادة الجارية ببلدهم حتى الآن أن الرجل إذا جهز ابنته بحلي أو غيره إنما هو على سبيل المعارة وتحمل به الابنة، وأنه متى أراد الورثة استرجاع شيء منه كان لهم ذلك لأنه ملك أبيهم.(63)، والعروس تشتري الثوب وتختاره وما يهواها، و تشتري أيضا الفراش والحلي والزخارف اللازمة للعرس(64)، بالإضافة إلى بعض الطيب والحناء والأصباغ، وفي بعض الأحيان يبعث الزوج إلى الزوجة بعض المال تستعين به العروس لشراء ما يلزمها قبل الزفاف وهو ما يسميه العامة بحق العروس، والمتعارف عليه أن يقوم بإرسال هدية من جذور أو لحم إلى بيت والد العروس لكي يعدّوا طعاما يأكل منه أقارب العروسين ليلة الزفاف(65).

وهناك حالات تقع في الجهاز مثل هبة أم وصي بعض جهازها العرس لابنتها، واشترطت أنها متى فوتت شيئا منه فهي راجعة في الهبة(66)

وهناك وصية التزمت فيها الأم أنها متى تزوجت قبل بلوغ ولدها فجميع ما ترثه من أبيهم لهم صدقة ثم أرادت أن تتزوج لزمها ما التزمت به ولا تجبر(67).

وكانت الهدية التي قدمها أحد الزوجين للآخر قبل العقد لا رجوع فيها، سواء قبل البناء أو بعده أو بعد الفراق (68)

الفرع الثالث: عادة الخلوة

وهي عادة سائدة في بلاد المغرب، إذ لابد للزوج من خلوة بزوجته ليلة معينة قبل الدخول في بيته أو بيت أبيها، والعادة المألوفة حتى أنه إن لم يقع منه هذه العادة يلحق الزوجة وأهلها معرة كبيرة ويقع الشر بينهما، وربما أدى إلى فراقها، وبعد تلك الليلة يكون الخيار في البيت عندها أو إذا أراد يعلمها أو يعلم أهلها(69)

الفرع الرابع: الوليمة

الوليمة هي الإعلان عن الزواج، وهي أخر مراحل الزواج، بحيث تنقل العروس إلى زوجها، وفيها يقع الدخول، وهناك عادة كانت منتشرة ما يعرف بحق العرس، حيث يساعد الزوج ببعض المال لزوجته، و هو معونة من الزوج للمرأة، لهذا أسسه الناس لأن النقد يصرفه في ثياب وشوار، وجعلت نفقة العرس لطيب وصباغ وحناء وكذا كراء حلي فينبغي للزوج أن لا يخرج عن عادة الناس(70)

أما العرس فكان ينقسم إلى حفلين أحداهما يتم نهارا للرجال والآخر ليلا للنساء(71)، وصفة العرس أن يحضر المزامير ويذبح ثورا أو ثورين أو أكثر، كل واحد على قدر حاله، وكانوا يستعملون في العرس الدف والصفائح يسمونه المزنج وسماع الطر بتلك الزنوج وما يشبه مما يشهر به النكاح، (72)، ويستعملون البخور (73).

وكانت الوليمة يدعى إليها الناس وسماع الدف والملاهي، حتى أن هناك من كان يتحرج من حضور الأعراس بسبب بعض المخالفات الشرعية (74)، إذ يتخلل العرس في بعض الأحيان متخذ الملاهي وأنواع الغناء المحرم والآلات والمزامير صناعة وحرفة، ويكتسبون بها ويستأجرون عليها عند السرور والحزن، مثل الزفافين والمغنيين وسائر مالا يحل، فهم أعيان الشيطان في تحريك النفوس لكل شر(75).

ويتم في العرس الإطعام من مختلف الأصناف المأكولات مثل اللحم والأدام والفواكه والفقوس والعنب والفواكه اليابسة(76) والزوج يعطون له هدية مثل الدراهم(77)، إضافة إلى أن هناك هدية الإخوان للعروس ليردها عليهم عندما يتزوجون (78).

وكانت الزوجة ليلة البناء لدى الأثرياء يعملون لها حلي وثياب فاخرة من الشرط(79)، وتحرص العروس على تجميل وتزيين نفسها ليلة الزفاف، وكانت الماشطة تتولى تزيين العروسة مقابل مبلغ من المال، ومن وسائل تجميل العروس دهان وجهها ببعض الطيوب والأصباغ التي تظهر جمالها(80)كما تضع العروس الكحل والحناء ووصل شعرها(81)

أما الزوج وأصحابه فيذهبون عند الحلاق، وبعد تناول الغذاء بدار الزوج يذهب العريس للحمام، وفي كل من دار الزوجين تقع حفلة العرس يستدعي لها النساء خاصة اللواتي يلبسن أحسن ما عندهن من الثياب، ويتحلين بأثمن ما عندهن من الحلي، وأثناء الحفلة يقدم إليهن طعاما خاصا يسمى **المرقة بالعسل** ثم شاي أو قهوة وحلويات متنوعة، وفي المساء يؤتى بالعروسة إلى دار الزوج ثم تقع حفلة الحلوة، وبعدها تدخل إلى بيتها فتجلس على كرسي وهي لابسة أحسن الألبسة الحريرية وأجملها، وفوق ذلك كله محلات بأرفع الحلي وأثمنها، وتبقى تنتظر دخول العروس ووجهها مغطى بمنديل(82)

المطلب الرابع: ظاهرة التكافل الاجتماعي وانعدام الأمن

الفرع الأول: التكافل الاجتماعي:

و تعد ظاهرة التضامن والتكافل الاجتماعي من أهم مميزات المجتمع المغربي، بحيث تظهر في سلوكات الأفراد، وهي تدل على انتشار الوازع الديني في المجتمع، ومن أمثلة ذلك زاوية حبستها إمرة على الفقراء ثم غابت نحو تسعة أعوام وبقيت الزاوية بيد الفقراء(83)، وهناك من وصى بدراهم على فقراء القيروان(84)، كما هناك رجل وصى بفدان يكون حبسا على المساكين بعد وفاته، يؤخذ فائدة كل عام ويشتري به خبز يفرقه على الضعفاء(85)، ورجل يحبس أحباس على طلبة العلم الضعفاء (86)، وكذلك من

أوصى بثلث ماله لفقراء جامع معين(87)، ورجل أوصى مالا للأقارب، يدخل فيها الفقراء والأغنياء، ويعطى الفقراء أكثر مما يعطى الأغنياء(88).

ومن مظاهر التضامن بين أفراد المجتمع هو تقديم الهدايا بين الأصدقاء والأقارب والجيران، هدية الجيران بعضهم لبعض من طعام لا على وجه الثواب(89)، وكذلك هدية رجل طعاما لآخر فيرده عليه الآخر قمحا وزيتا وتينا ولحما مما يتهاد الناس(90)، وهذا يدل على التضامن بين المجتمع وترسخ القيم الإسلامية فيه.

ومن مظاهر التضامن الأخرى هو المنفعة العامة، حيث الخدمة عمومية، مثل من أوصى ليلة المولد بالثلث ماله أوقفت لإقامتها(91)، وكذلك وصية بالثلث المال، حيث حضر شاهدان عند مريض فقيل له: أتعطي الجامع شيئا ؟ قال لا.قيل له: أتعطيه الثلث؟ قال نعم(92)، وكذلك وصية رجل في مرضه بزيت الزيتون لمسجد سماه ليس في القرية غيره، ثم تبنى في القرية مساجد أخرى ويفضل الكثير من الزيت ويراد صرفه إلى غيره من المساجد(93)، وكان الوصي بتنفيذ وصية لا يتعجل حتى يتبين وينكشف عما يكون على المريض من دين أو شركة ويعذر الورثة(94)، وكذلك هناك من وقف أرض ليس فيها كبير منفعة على زاوية(95)، وهنا يظهر بشكل جلي مظاهر التكافل الاجتماعي.

الفرع الثاني: ظاهرة انعدام الأمن:

وظاهرة انعدام الأمن كانت منتشرة بكثرة في المغرب الإسلامي، وذلك لعدة أسباب، مثل ما وقع في تونس أثناء حصار الأمير أبي حفص لها من إغارة العرب على قراها، وما نشأ عن ذلك من قلة الأقوات وغلاء الأسعار(96)، وأيضا ما وقع في مدينة القيروان حيث خربت بسبب الأعراب (97)، وكذلك في كثير من مناطق المغرب الإسلامي حيث أصبحت عرضة لهجوم القبائل العربية، وهنا كتب الإمام أبو العباس أحمد المريض يستفتي الشيخ ابن عرفة في قضية قتال الديلم وسعيد ورياح وسويد وبني عامر عرب المغرب الأوسط سنة 796هـ(98)، حيث هؤلاء العرب مابين فارسها وراجلها قدر عشرة ألاف

أو تزيد ليس لهم حرفة إلا شن الغارات وقطع الطرقات على المساكين وسفك دمائهم ونهب أموالهم بغير حق، ويأخذون حرم الإسلام أبكارا وثيبا قهرا وغلبة، هذا دأب سلفهم وخلفهم، مع أن أحكام السلطان أو نائبه لا تنالهم، بل ضعف عن مقاومتهم فضلا عن ردعهم، بل يداريهم بالأعطية والأنعام ببعض بلاد رعيته، ونصب عمالهم فيها، وقطع نظر عمال السلطنة عن النظر في جبايتها وفصل أحكامها، بل هم مع ذلك لا تؤمن الناس منهم، حيث نصبوا الغارات على بعض البلاد، وقتلوا من عاجلوه وطلبوه على قطع رقاب المساكين وأخذ أموالهم وسبي حريمهم، وهنا أمر أحد العلماء بقتالهم وأنه جهاد، فاجتمع الناس على قتالهم، فهزمهم الله وقتل منهم خلق كثيرا، وكان عددهم كبير، وتتبعهم بعد هزيمتهم إذ لا تنكسر شوكتهم مجرد هزيمة واحدة لقوتهم وكثرة عددهم، وهنا أمر الشيخ بإتباعهم وقتالهم، وأن ما في أيديهم من أموال أن تؤخذ وجعلها فيئا إذ هم مستغرقون الذمة. وأيد الشيخ أبو العباس أحمد المريض في هذه الفتوة كل من الفقيه القاضي أبو مهدي سيدي عيسى بن أحمد بن محمد الغبريني رحمه الله، وكذلك الفقيه الإمام أبي عبد الله ابن عرفة(99)

الخاتمة:

من خلال هذه الدراسة نستنتج مجموعة من الاستنتاجات وهي:

– تلعب كتب النوازل دورا مهما في الدراسات التاريخية، وبالتالي هي مصدر مهم لا غنى عنه في كتابة تاريخ المغرب الإسلامي، وذلك بتوضيح فكرة أو إضافة معلومة، وقد نجد معلومة تاريخية في كتب النوازل نفتقدها في المصادر والمراجع التاريخية.

– من خلال كتاب المعيار استطعنا إعطاء صورة شاملة عن الطبقات الاجتماعية التي كانت موجودة، وكذلك مراحل الزواج من الخطبة والوليمة وغيرها

– كما استطعنا التعرف على أهم العادات والتقاليد في المغرب الإسلامي

- كان المجتمع المغربي تتحكم فيه العادات والتقاليد في جميع النواحي الاجتماعية، سواء عادات حسنة أو سيئة.

- من كتاب المعيار استطعنا الوصول إلى الشخصية وعقلية الإنسان في المغرب الإسلامي بكل دقة.

قائمة المصادر والمراجع:

1- أحمد ابن منجور، فهرسة أحمد بن منجور، تحقيق محمد حجي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، دط، الرباط المغرب، 1976، ص50

2- أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تحقيق عبد الحميد عبد الله الهرامة، منشورات دار الكاتب، ط2، ليبيا، 2000، ص135

3- محمد بن عسكر الحسني الشفشاوي، تحقيق محمد حجي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، ط2، 1977، ص47، 48

4- الشريف أبي عبد الله الكتاني، سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، تحقيق عبد الله الكامل الكتاني، ج2، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ، دط، دت، ص171

5- أبو عمران الشيخ وآخرون، معجم مشاهير المغاربة، منشورات دحلب، الجزائر، دط، دت ص485، 486

6- شهاب الدين أحمد المقري التلمساني، أزهار الرياض في أخبار عياض، ج3، تحقيق مصطفى الصقا وآخرون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، دط، مصر، 1942، ص ص 65

7- محمد عمرو الطمار، تلمسان عبرا العصور، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دط، 1984، ص226

8- أبو العمران الشيخ وآخرون، المرجع السابق، ص485، 486

9- التنبكتي، المصدر السابق، ص136 /ابن مريم المديوني، البستان، تحقيق ابن أبي الشنب، المطبعة الثعالبية، دط، الجزائر، 1908، ص53

10- محمد بن عمرو الطمار، المرجع السابق، ص226

11- شهاب الدين أحمد المقري التلمساني، المصدر السابق، ص306،307

12 - أحمد بن منجور، المصدر السابق، ص50

13- أحمد بن يحي الونشريسي، الوفيات، تحقيق محمد بن يوسف القاضي، شركة نوابغ الفكر، الجزائر، دط، دت، ص95

14- المصدر نفسه، ص103

15-نفسه، ص103، 104

16- نفسه، ص105

17- نفسه، ص106

18-نفسه، ص107

19-نفسه، ص111

20-عمرو الطمار، المرجع السابق، ص226

21- ابن مريم المديوني، المصدر السابق، ص53

22- عمرو الطمار، المرجع السابق، ص226

23- محمد بن عسكر الحسني الشفشاوي، المصدر السابق، ص5، 6

24- أبو عمران الشيخ، المرجع السابق، ص485، 486

25- أحمد بن يحي الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغ رب، تحقيق محمد حجي وآخرون، ج1، دار الغرب الإسلامي، ط1، لبنان، 1981، ص1

26- الونشريسي، المصدر السابق، ج1، ص1

27- محمد بن مطلق الرميح، النوازل الفقهية المالية من خلال كتاب المعيار المعرب للونشريسي ت914هـ(مذكرة الماجستير)، جامعة أم القرى، السعودية، 2011، ص169

28- المرجع نفسه، ص169
29- نفسه، ص169
30- التنبكتي، المصدر السابق، ص135/عبد الرحمن الجيلالي، ج2، ديوان المطبوعات الجامعية، ط7، الجزائر، 1994، ص278
31- التنبكتي، المرجع نفسه، ص54
32- محمد الشفشاوي، المصدر السابق، ص34
33- محمد بن مطلق الرميح، المرجع السابق، ص170
34- الونشريسي، ج1، المصدر السابق، ص 1
35- المصدر نفسه، ج12، ص395
36- محمد الرميح، المرجع السابق، ص168
37- صرموم رابح، المعيار المعرب للونشريسي وأهميته في الدراسات التاريخية، حوليات جامعة الجزائر1، الجزائر، المجلد35، العدد3، 2021 ، ص499
38- خالد بلغربي، أهمية كتاب المعيار المعرب للونشريسي في كتابة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الأوسط، مجلة القرطاس، الجزائر، العدد 5، جوان 2017، ص8
39- عبد العزيز فيلالي، تلمسان في العهد الزياني، ج1، موفم للنشر والتوزيع، دط، الجزائر، 2002، ص211، 212
40- كمال السيد أبو مصطفى، جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي من خلال نوازل وفتاوي المعيار للونشريسي، مركز الإسكندرية للكتاب، مصر، دط، 1996، ص34
41- أبو زكريا يحي المازوني، الدرر المكنونة في نوازل مازونة، تحقيق مختار حساني، ط1، مخبر المخطوطات، ط1، جامعة الجزائر2، الجزائر، 2004، ص90/ الونشريسي، المصدر السابق، ج2، ص544/الونشريسي، المصدر السابق، ج3، ص58
42- كمال أبو مصطفى، المرجع السابق، ص35
43- الونشريسي، المصدر السابق، ج2، ص541، 547، 548، 553
44- المصدر نفسه، ج12، ص225، 231
45- كمال أبو مصطفى، المرجع السابق، ص36
46- الونشريسي، المصدر السابق، ج9، ص408
47- المصدر نفسه، ج5، ص146، 147
48- نفسه، ج10، ص309
49- كمال أبو مصطفى، المصدر السابق، ص41، 42
50- المصدر نفسه، ص42
51- نفسه، ص43، 44
52- الونشريسي، المصدر السابق، ج11، ص279، 280
53- كمال أبو مصطفى، المرجع السابق، ص43، 44
54- المرجع نفسه، ص44، 46
55-الوننشريسي، المصدر السابق، ج7، ص148، 149/نفسه، ج11، ص293، 297
56- نفسه، ج8، ص161
57- نفسه، ج11، ص39
58- شعوة علي، الحياة الاجتماعية من خلال كتاب الدرر المكنونة للمازوني(مذكرة الماجستير)، جامعة الجزائر2، 2008، ص63
59- الونشريسي، المصدر السابق، ج3، ص125
60- نفسه، ج3، ص153، 161
61- المازوني، المصدر السابق، ج2، ص472
62- الونشريسي، المصدر السابق، ج3، ص36
63- المصدر نفسه، ، ج3، ص36
64- المازوني، المصدر السابق، ج2، ص716، 742

65- كمال أبو مصطفى، المرجع السابق، ص15
66- الونشريسي، ج9، ص127
67- المصدر نفسه، ج10، ص138، 142
68- نفسه، ج3، ص345
69- المازوني، المصدر السابق، ج2، ص716، 742
70- الونشريسي، المصدر السابق، ج3ن ص156
71- كمال أبو مصطفى، المرجع السابق، ص16
72- الونشريسي، المصدر السابق، ج3، ص251، 252
73- المازوني، المصدر السابق، ج2، ص479
74- الونشريسي، المصدر السابق، ج3، ص252
75- المصدر السابق، ج2، ص498
76- المازوني، المصدر السابق، ج2، ص477، 478، 717، 727، 746، 747
77- المصدر نفسه، ج2، ص619
78- الونشريسي، المصدر السابق، ج9، ص180
79- المازوني، المصدر السابق، ج2، ص690
80- الونشريسي، المصدر السابق، ج3، ص278/كمال أبو مصطفى، المرجع السابق، ص16
81- المصدر نفسه، ج11، ص145
82- الحاج محمد بن رمضان شاوش، باقة السوسان والتعريف بحاضرة تلمسان عاصمة بني زيان، ديوان المطبوعات الجامعية، ط1، الجزائر، 1995، ص383
83- الونشريسي، المصدر السابق، ج7، ص115، 116
84- المصدر نفسه، ج9، ص531
85- نفسه، ج7، ص182، 183
86- نفسه، ج7، ص124، 126
87- نفسه، ج7، ص227
88- نفسه، ج9، ص520
89- نفسه، ج9، ص181
90- نفسه، ج9، ص182
91- نفسه، ج7، ص102، 103
92- نفسه، ج9، ص496
93- نفسه، ج7، ص64، 65/ نفسه، ج9، ص399
94- نفسه، ج9، ص385
95- نفسه، ج10، ص413
96- نفسه، ج5، ص68
97- نفسه، ج9، ص563
98-نفسه، ج2، ص435، 439/ج6، ص153، 154
99- نفسه، ج2، ص435، 439